

# وسائل القرآن في حوار الآخر



بقلم

د. محمد رفعت أحمد زنجير

أستاذ مشارك بجامعة عجمان للعلوم

هذا البحث مقسم إلى مقدمة وتمهيد و(٢٢) فقرة، ومذيل بخاتمة.

في المقدمة ذكرت سبب كتابة هذا البحث وأنه يأتي ضمن الرد على حملة شرسة تتهم الإسلام بعدم احترام الفكر والرأي لدى الناس.

وفي التمهيد بيّنت أن الدعوة إلى الله هي مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأن القرآن الكريم كتاب يحترم العقل والمنطق، ويدعو إلى التفكير والحوار مع مختلف البشر ممن لا يؤمنون به، وفي القرآن

---

(\*) دكتوراة في البلاغة والنقد من جامعة أم القرى عام ١٤١٦هـ/١٩٩٥م. عضو هيئة التدريس بجامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا سابقاً، صدر له (١٤) كتاباً في الدراسات التخصصية بالإضافة إلى عدد من البحوث والدراسات الفكرية والإسلامية.

الكريم آيات كثيرة في هذا الصدد، مما يدل على حيويته وملامسته لواقع الناس الديني والفكري.

وذكرت أن للدعوة أساليبها ووسائلها في إقناع الآخر، وإلزامه الحجة، وقد ناقشنا هذه الوسائل مناقشة علمية هادئة من خلال ما يقوله الله ﷻ في كتابه مباشرة للكافرين والمعاندين، أو من خلال ما يعلمه لنيه - عليه الصلاة والسلام - من أساليب الحوار والحجاج، وكانت المناقشة ضمن (٢٢) فقرة وفق التالي:

- ١ - الاحتكام إلى العقل.
- ٢ - الاحتكام إلى النفس.
- ٣ - الاحتكام إلى الفطرة.
- ٤ - الاحتكام إلى البيئة.
- ٥ - الاحتكام إلى الكون ومظاهره.
- ٦ - الاحتكام إلى التاريخ.
- ٧ - الاحتكام إلى المستقبل.
- ٨ - الاحتكام إلى أهل العلم والخبرة.
- ٩ - الاحتكام إلى القيم الفاضلة.
- ١٠ - الاحتكام إلى المصلحة العامة.



١١ - الاحتكام إلى خوارق العادات (المعجزات).

١٢ - الاحتكام إلى المعجزة القرآنية.

١٣ - استخدام التشبيه.

١٤ - المذهب الكلامي.

١٥ - تسخير طاقات اللغة.

١٦ - طلب الدليل والبرهان.

١٧ - دحض شبهة الخصم.

١٨ - الاحتكام إلى القيم الجمالية.

١٩ - الاحتكام إلى السيرة النبوية.

٢٠ - الاحتكام إلى المنهج التجريبي.

٢١ - الوعد والوعيد.

٢٢ - الاحتكام إلى الله ﷻ.

وفي الخاتمة؛ ذكرت نتائج البحث وأهم المقترحات، وتوصلت إلى أن القرآن استخدم جميع الوسائل المتاحة في الكون والحياة والإنسان ذاته من أجل إثبات قضاياه التي يطرحها، واستخدم سجل الحياة الإنسانية ماضيها ومستقبلها للغرض السابق أيضاً، وسخر طاقات اللغة التعبيرية والعلوم والمعارف جميعها، واعتمد على الفطرة السليمة ولم يأل جهداً في إيقاظها وتنبيهها، واستخدم أجود أساليب التعبير والحوار لإقامة حجته، وأشاد بالمعجزات على أنها دلائل إثبات صدق المرسلين، وأعظمها هذا القرآن العظيم، واحتكم إلى مصالح العباد التي تقتضي الإيمان من أجل سيرورة الحياة وبقائها.

وأوصيت بما يلي:

- ١ - تشجيع الدراسات الحوارية بين الإسلام ومخالفه أو خصومه.
- ٢ - استخدام المزيد من الوسائل المتاحة لهذا الغرض كالصحف والأفلام والشبكة الإلكترونية.
- ٣ - نؤكد على أن الحوار هو في صالح الإسلام أولاً.  
وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





## مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعباده الذين اصطفى.

وبعد:

فإننا نعيش في فتن متلاطمة الأمواج، وفي جهل مركب، ضمن عالم يختال فيه الناعقون، ويُصَفد فيه أهل الرأي والحجى، فصرنا نجد من يهاجم دين الله تعالى، ورسوله الكريم، بصورة أسوأ من الجاهلية الأولى. في حين أن السواد الأعظم من المسلمين مشغول في البحث عن لقمة، أو غارق في أهوائه وشهواته، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي هذا الجو الموبوء صار الدين ينعت بكل فرية، ولا من يرد ولا من يجيب، اللهم إلا أصواتاً ضعيفة، لا تضارع جعجعة الباطل وحزبه.

وكان من أفرى الفرى أن يقال: إن القرآن انتشر بالسيف والإكراه، وأن ديننا لا يؤمن بلغة العقل والحوار، فكان لزاماً على أهل الرأي والنهى أن يتصدوا لهذه الحملات الظالمة.

وقد أحببت المشاركة بهذا البحث لغرض الذب عن ديننا، وأسأل الله ﷻ أن يتقبل مني، وأن يختم لي بخاتمة السعادة، وهو حسبي ونعم الوكيل.



## تمهيد حول أهمية البحث

الدعوة إلى الله هي مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وهي ينبغي أن تكون بأسلوب اللين والرفق، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وليست الدعوة مقصورة على الرسل، بل هي واجب على أتباعهم أيضاً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والدين الإسلامي الذي ندعو إليه هو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. وقد حصل الاختلاف بين أتباع الرسل السابقين، وقد حصل التغيير والتبديل عن المنهج الثابت الذي شرعه الله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعَثَ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]. ومن ثم كانت رسالة النبي محمد ﷺ أن يرد الناس إلى المنهج القويم الذي كان عليه الأنبياء جميعاً، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

والقرآن الكريم كتاب يحترم العقل والمنطق، ويدعو إلى التفكير



والحوار، فمن ذلك ذكره لموقف أحد المشركين المنكرين للبعث وهو أبي بن خلف الجمحي، الذي (أخذ عظماً بالياً فجعل يفته بيده ويقول: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم؟ قال ﷺ: «نعم، ويبعثك، ويدخلك جهنم»<sup>(١)</sup>). قال تعالى: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس: ٧٨).

ومن ذلك دعوته بني إسرائيل إلى إحضار توراتهم لإثبات كذبهم، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ فُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) [آل عمران: ٩٣].

ومن ذلك دعوته نصارى نجران للمباهلة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِزْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١١) [آل عمران: ٦١].

ومن ذلك حواره لأهل الكتاب في شأن إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ عِزَّةٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٥) [آل عمران: ٦٥].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا الصدد، مما يدل على حيويته وملازمته لواقع الناس الديني والفكري، فهو كتاب يهتم بالحوار وإقامة الحجة والبرهان، كما يهتم بأداب الحوار والتعامل مع الآخرين برفق، وهو أمر يفتقده معظم المعارضين للقرآن الكريم.

وللدعوة أساليبها ووسائلها في إقناع الآخر، وإلزامه الحجة، وهذا البحث الذي نقدمه يتكامل مع بحث محكم سابق نشرناه بعنوان: (منهجية القرآن في التعامل مع آراء معارضيه)، وقد نشرناه في كتاب مستقل أيضاً،

(١) الكشف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (٣٠/٤).

وذلك لما للموضوع من أهمية، وكنا قد استعرضنا فيه الأسس المنهجية للحوار مع الآخر، واليوم نستعرض في هذا البحث الوسائل المنهجية التي استخدمها القرآن في حوار الآخر، وهو بحث هام من أجل أن نتعلم من هذه الوسائل المساعدة في طرائق التفكير والتعبير والحوار حتى نقيم حجة الله على خلقه.

وهذا البحث مقسم إلى (٢٢) فقرة، ومذيل بخاتمة، فإلى أولى فقرات هذا البحث.







## ١ - الاحتكام إلى العقل

من خصائص القرآن الكريم أنه كتاب يؤمن بالعقل ويعلي من شأنه، وقد جعله مناط التكليف، وهو يحتكم إليه في شؤون الدين والدنيا، وفي خطابه للمسلمين وغيرهم.

فالكون في المنظور القرآني كتاب ناطق يهدي العقلاء من الناس إلى ربهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْبَا بِهِنَّ الْأَرْضَ بِعَدِّ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، والكون يهدي أيضاً إلى معرفة الغرض من الخلق؛ وهو الفتنة والابتلاء، ليعقب ذلك الجزاء في عالم البقاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وعقب هذه الآية بين صفة أولي الألباب، وكيف يستدلون بوحدة الخلق على وحدة الخالق سبحانه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ رَبَّنَا فَتَقَرُّوْنَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦٦﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

وتبيان الآيات من أجل إدراكها والتفكر فيها، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢].

والحياة الدنيا ليست إلا ممراً للآخرة لمن تفكر، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

والتشريع ليس إلا وسيلة لحفظ العقل وديمومة الحياة، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَّمُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

والوثنية ليست سوى انحطاط عقلي، لا يليق بالآدميين، قال تعالى: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٧].

والشرك بالله - الذي هو أكبر جريمة يعاقب الله عليها - لا يتناغم مع العقل في شيء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَارِزَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

وليس ثمة دليل واحد للمشركين يعتمدون عليه، قال تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٥].

والآلهة المزيفة لا تستطيع أن تغالب رب العالمين، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ الْغَيْبَ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢]، والمعنى: «لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض»<sup>(١)</sup>.

بل هي لا تستطيع نصر أصحابها، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٨].

وهي لم تخلق شيئاً أصلاً حتى تغالب الرب سبحانه، أو تنصر أصحابها، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ

(١) تفسير الكشاف، (٢/٦٦٩).



وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا شَوْرًا ﴿٢٣﴾  
[الفرقان: ٢٣].

والشرك يقتضي الصراع بين الآلهة، مما يترتب عليه فساد الكون في جملته، وطالما أن الكون يجري وفق نواميس وسنن ثابتة، فمعنى هذا أنه ليس ثمة شرك ولا شريك، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهذا الشرك - بكل أشكاله وصوره - قائم على الجهل ولا يستند إلى شيء من الحقائق المعتبرة، قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وأهل الشرك عطلوا حواسهم فصاروا شر الخليقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

وأهل الكتاب يتناقضون مع العقل في كثير من أحكامهم، كزعمهم انتساب إبراهيم إليهم، مع أنهم جاؤوا بعده، قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥].

وسلوك أهل الكتاب يتناقض مع معتقداتهم، فهم في فصام نكد بين المثال والواقع، مما يجعل العقل يتقزز من ممارساتهم اللامسؤولة، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وأكثر أهل الكتاب يركنون إلى الحياة الدنيا وأسبابها، وقد توحّدوا أمام الناس في حين أن حقيقتهم التشرذم والاختلاف، قال تعالى: ﴿لَا يُقِيلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

وبعض الأعراب لم يتعلموا أدب التعامل مع الآخر، وفيهم حماقة وقلّة عقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وقد وردت بعض الكلمات والمواد اللغوية المتصلة بالعقل كثيراً في القرآن الكريم، فمن ذلك:

عدد المرات	المادة مع مشتقاتها، أو الكلمة*
٤٩	عقل
١٦	ألباب
١٧	فكر
٢٠	فقه
١٢٧	نظر
١٤٨	بصر
٨٥٥	علم
١٨٥	سمع
١٦	فؤاد*
١٣٥	قلب*

وهذا التكرار لمواد ذات صلة بالعقل، يعتبر كله إعلاء من شأن العقل وأدواته من حواس وعلم في خطاب الناس على مختلف توجهاتهم ونحلهم وأديانهم، وليس هذا موضع تفصيل تلك المواضع، واكتفينا بالإشارة إليها على موضع الإجمال، لنؤكد على أن العقل هو الأداة الأولى التي يحتكم إليها الخطاب القرآني.

\*\*\*



## ٢ - الاحتكام إلى النفس

النفس: لها معان عدة، فهي الروح، والذات<sup>(١)</sup>، والنفس البشرية من أعظم الأشياء التي استخدمها القرآن في الدلالة على وحدانية الله، وعظمة آياته، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، والمعنى: «في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق، ما تتحير فيه الأذهان»<sup>(٢)</sup>.

وللإنسان أن يتأمل بدء خلقه، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

وله أن يتأمل خط سيره من الرحم إلى القبر مروراً بالحياة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُبُهًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وله أن يتأمل كيف يدب الوهن والضعف فيه بعد رحلة الصحة والشباب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

وله أن يتأمل حياته الجنسية والعاطفية ليدرك عظمة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وله أن يتأمل دقائق صنع الله تعالى في النفس البشرية وما بث فيها من مشاعر الفجور والتقوى، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]. وليستعذ بالله مما توسوس به نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]،

(١) مفردات الراغب، مادة (نفس).

(٢) تفسير الكشاف، (٣٩٩/٤).

وليتأمل كيف تزين له نفسه السوء والمنكر، قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

وله أن يتأمل في جسده وحسنه وقوامه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وليتأمل جوارحه ولسانه وبيانه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾ [البلد: ٨، ٩].

وله أن يتأمل تعدد الألوان واختلاف اللغات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَاصِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، ليدرك من خلال ذلك كله، أن الله خلقه في أحسن تقويم، وأن أكبر آية على وحدانية الله هي هذه النفس القريبة التي نعيش بين جنبيها، فتبارك الله أحسن الخالقين!



### ٣ - الاحتكام إلى الفطرة

الفطرة مشتقة من فطر، «وفطر الله الخلق: وهو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال، فقوله: ﴿فِطَرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فإشارة منه تعالى إلى ما فطر، أي: أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته علي معرفة الإيمان، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]...»<sup>(١)</sup>.

ورد الناس إلى فطرتهم، وبعث ما فيها من كوامن الخير والفلاح، هو منهج الأنبياء جميعاً، فهذا نوح عليه السلام ينكر على قومه نبذ الإيمان بالله خالقهم، وعدم إجلال ربهم ﷻ، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

(١) المفردات، للراغب، مادة (فطر).



وهذا إبراهيم يتبرأ من قومه حتى يردهم إلى الإيمان بالله الواحد، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ④﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذا لوط ينعى على قومه سلوكهم المشين الذي يخالف الفطرة، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ⑧﴾ [الأعراف: ٨٠].

ولم يكن سيدنا محمد ﷺ بمعزل عن هؤلاء الأنبياء أيضاً، فهم قد بشروا به، وكل ما نادى به هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وفك الغلال عن البشر، مما يقتضي على كل ذي لب اتباعه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ بَرَأَ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الْعَمَلِ وَأَعْبَادَهُمْ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا النَّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤٧﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والخلاصة: أن الإيمان بالله هو فطرة في النفس البشرية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ①﴾ [التغابن: ١١]، ومبادئ الدين وقيمه وأحكامه منسجمة تماماً مع الفطرة السليمة، قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِينُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ③٠﴾ [الروم: ٣٠]. فلا غرو بعد هذا أن تكون الفطرة السليمة إحدى الوسائل المنهجية التي يحتكم إليها الرسل وأتباعهم في الدعوة إلى الله.



## ٤ - الاحتكام إلى البيئة

البيئة في اللغة: «المنزل والحال، يقال: بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية»<sup>(١)</sup>.

والبيئة بهذا المفهوم إحدى وسائل التي يتحاكم إليها الخطاب القرآني، فالطعام والشراب من معجزات الله ﷻ، حيث هنالك دورة للماء والنبات حتى يصل صالحين للاستعمال الآدمي، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ [عبس: ٢٤ - ٢٦].

والأرض وما فيها من النباتات والأشجار المختلفة، ذات الطعوم المختلفة، بيد أن الماء واحد، وفي هذا إشارة إلى علم الوراثة في النبات، فالمورثات هي التي تتسبب في اختلاف المذاق، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجُنُتٌ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرَءٌ وَنَخِيلٌ وَنَخْلٌ وَنَخْلٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [الرعد: ٤].

ويد الإنسان تمتد لرزق الله تعالى، فتتخذ منه الحلال والحرام، قال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ لَتَخْذُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ [النحل: ٦٧]، والسكر: الخمر<sup>(٢)</sup>، وكأن الإنسان هو الذي يتمادى في طغيانه فيجعل نعمة الله خمرًا، فيفسد ما وهبه الله إياه من نعمة.

والماء هو سر الحياة على هذه الأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وعنه تنبت المزروعات والثمار، قال تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١١﴾ [النحل: ١١]، ومن هذه الثمار

(١) المعجم الوسيط، مادة (باء).

(٢) الكشف، (٦١٧/٢).





يكون العسل الذي فيه شفاء للناس، فهو غذاء ودواء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

وحيث ما نظر الإنسان، فسيجد من حوله نعم الله تحوطه وتغمره، فالبيئة بما فيها من ثروة ومال وطعام وشراب وزرع وماء وحيوان وحشرات، كلها آيات تدل على وحدانية الله ﷻ، وإذا تجاوزنا البيئة الطبيعية إلى البيئة الاجتماعية وما فيها من سنن الاجتماع والتطور والتغيير، أو إلى البيئة السياسية وما فيها من خير وشر وتقلبات ونزاعات، وجدنا آيات الله وسننه الثابتة التي لا تتغير، فالعدل جوهر الحياة، وأساس البقاء، والتغيير يبدأ من النفس أولاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. والظلم يعصف بالأمم والممالك عبر التاريخ، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]. وهذا بحث كبير، جدير بالتفصيل في دراسة مستقلة.



## ٥ - الاحتكام إلى الكون ومظاهره

تعتبر المنهجية القرآنية الكون وما فيه من مظاهر الحكمة والإبداع وسيلة لإثبات الخالق ووحدانيته ﷻ، فالله سبحانه هو الموجد لهذا الكون، ومدبر أمره، بيده أسباب الخلق والرزق، وأمر الليل والنهار، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وهو رب الأجرام العلوية النيرة، التي سخرها من أجل حياة الإنسان،

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

وهو رب الأرض بما فيها، وقد أمدّها سبحانه بما يحقق فيها الأمن من جبال تقيها الزلازل، وأنهار تعدّ شرايين الحياة للبشر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وهو رب الجهات كلها سبحانه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وهو واهب الرزق والحياة لمن في الأرض حتى بإقرار المشركين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقد جعل وميض البرق شعاع أمل ورعشة خوف في قلوب عباده، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

ومن يملك الكون يملك أمر الموت والحياة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

وهو سبحانه وحده أهل لأن يعبد ويطاع، لأن بيده كل شيء، وغيره لا يملك شيئاً، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ومن ابتغى رباً سواه فهو أحق وجاهل، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

\*\*\*

## ٦ - الاحتكام إلى التاريخ

التاريخ خير شاهد على صدق الأنبياء، وإثبات الرسالات، فآثار الأمم البائدة بالعقاب الرباني تنطق بالحق عبر التاريخ، قال تعالى يذكر بأسه في



قوم لوط، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٨٢]، ثم ذكر العبرة من بقاء قرية لوط: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥]. وقال يذكر عاداً وثمود: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال يذكر معهما أصحاب الرس وهم من عبدة الأوثان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، وقال يذكر قوم تبع: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان: ٣٧].

والظلم هو سبب الهلاك، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٩]، وأشنع أنواع الظلم هو الشرك بالله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]. وليس ثمة عذر لمن أهلكهم الله بعد أن أرسل الرسل وأيدهم بالمعجزات البينة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: ١٣].

والاحتكام إلى تجارب الأمم السابقة خير سبيل للنجاة، فالتاريخ في معظمه يسطر تجارب مريرة للبشرية بسبب بعدها عن دين الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٢]، وهذه قرية لوط يمر عليها المشركون في كل الأوقات فلا يتدبرون ولا يعتبرون، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ لَنُرُونَهُمْ عَلَيْكُمْ فَاصْبِرْ لَهُمْ صَبْرًا مَّتَدًّا ﴿٢٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]. وهذه آثار مملكة فرعون البائدة بسبب الظلم، قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَيَكِينٍ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

وفي التاريخ قصص كثيرة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾ ﴿٤﴾ [يوسف: ٣]، وينبغي أن تؤخذ العبرة من القصص الصادقة، لا أن تسرد القصص لمجرد التسلية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ [يوسف: ١١١].

وفي القصص القرآني نذير لقريش وغيرهم من المعاندين: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ﴿١٣٢﴾ [محمد: ١٣]، فقد بعث الله إليهم رسولا وهم على أبواب العذاب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ ﴿١٣٤﴾ [طه: ١٣٤].

وقد جعل الله ﷻ النصر حليف عباده المتقين، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وهذه سنة جارية من قبل الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - وبعده، فإقامة منهج الله هو مفتاح الرزق والفرج والخير كل الخير، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿١٧٩﴾ [طه: ١٣٢].

ودراسة التاريخ لا تعني الجمود والتفديس لكل ما هو قديم، إذ لا بد أن تكون دراسة نقدية مبصرة لمعرفة المحاسن والمساوئ في عقيدة وتراث من كانوا قبلنا، وقد نعى الله على الكافرين تحنطهم في متحف التاريخ، وتكلس عقولهم عند مقولة الآباء والأجداد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولا بد من تحكيم التاريخ في المسائل المهمة، إذ لا يصح منهجياً أن يتسبب الجد الأعلى للأدنى، ولا المتقدم تاريخياً للمتأخر، ومن ثم فلا



يجوز أن يكون إبراهيم المتقدم زمانياً على موسى وعيسى عليهما السلام يهودياً ولا نصرانياً، قال تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥) هَآأَنْتُمْ هَآؤِلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) ﴿[آل عمران: ٦٥ - ٦٧].



## ٧ - الاحتكام إلى المستقبل

المستقبل غيب مخبأ، لا يستطيع العقل البشري أن ينفذ إليه على سبيل اليقين، وإنما هي تنبؤات وإرهاصات يعتمد عليها أصحاب الفراسة والخبرة، أو الكهان والمشعوذون، فيصيرون مرة ويخطئون مرات!.

وفي القرآن الكريم حديث طويل عن الغيب بشكل عام أو عن حوادث غيبية معينة تحققت، وهذا مما يزيد أهله إيماناً به، ويوقع الحجة على مناوئيه وأعدائه.

فمن ذلك وعد الله عباده المؤمنين بالتمكين لهم في الأرض، وهذه سنة ثابتة لا تتخلف عن جيل دون جيل، ولا تتبدل طول الدهر، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٥٥)، وقال أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١)، فالنصر حليف الإيمان في كل عصر ومصر على قلة أهل الإيمان عدداً وعدة، ولقائل أن يقول: فكيف قتل بعض الأنبياء والرسل بشهادة القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ [آل عمران: ٢١]. والجواب أن الشهادة هي نصر، بل هي أعظم نصر، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْضَى بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ [التوبة: ٥٢]. فليس ثمة شيء أعظم من الإيمان بالرسالة والثبات عليها من الاستشهاد في سبيلها، فيكون هذا الدم الطاهر وساماً لصاحبه يوم القيامة تنبعث منه رائحة المسك، كما يكون صاحبه مناراً للأجيال القادمة من المؤمنين، تعلمهم معنى التضحية والفداء.

ويتوعد الله الكافرين بالخذلان عند الجولة الأخيرة، قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلُ الْكَفَرُ لِمَنْ عُقُبُ الدَّارِ ﴿٤٢﴾ [الرعد: ٤٢]، وهي سنة ثابتة، فمهما علا الباطل، فإنه إلى الحضيض يمضي في النهاية.

وقد بشر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بفتح مكة، وتم له ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ [الفتح: ١]، وبشره بنصر دينه على جميع الأديان، وتم له ذلك في حياته، واستكمل بعد وفاته حتى عم نور الله مشارق الأرض ومغاربها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

على أن أعظم بشارة غيبية تحديه ببقاء القرآن دون تحريف، في مجتمع أمي، يتكون من مزيج متعدد، فيه المسلمون والمشركون والمنافقون وأهل الكتاب أصحاب الخبرة في التبديل والتحريف، ولكن الله حفظ كتابه في هذا المجتمع المتعدد المشارب، والحفظ مستمر إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: ٩].

ولا يقل أهمية عن هذه البشارة أن يعجز البشر عن محاكاته أو المجيء بسورة تشبهه، وأن يستمر التحدي إلى قيام الساعة، وأن لا نجد من أعداء القرآن - على كثرتهم في كل زمان - من يستطيع أن يقف لهذا التحدي، وقد مر زهاء خمسة عشر قرناً منذ نزول القرآن، وليس ثمة من



نجح في هذا، بل جميع المحاولات من مسيلمة، إلى كذاب ثقيف، إلى ابن الراوندي... إلى عصرنا، لا تعدو أن تكون عبثاً صبيانياً، فليس بوسع أحد أن يتحدى البشر جميعاً بفعل شيء هو من صنعته - أي: البيان - فلا يقدر أن عليه لو لم يكن هذا المتحدي هو رب الكون وخالق الزمان والمكان والحدث الذي يجري فيهما، وهو يعلم من وراء الغيب أنه ليس ثمة أحد يستطيع أن يقف أمام هذه المعجزة القرآنية الخالدة، ومن ثم دعاهم للإيمان لكي يقولوا أنفسهم من النار، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

## ٨ - الاحتكام إلى أهل العلم والخبرة

من مزايا القرآن الكريم تنويهه بالعلم وأهله، فالعلم مطلب شريف، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وأهل العلم في مرتبة لا يدانيها غيرهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وهم المرجعية المعتمدة للمعرفة الصحيحة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَشْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وعليه؛ فلكل علم مرجعيته، فهناك علم الشريعة، ومرجعيته الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ نَفْسِكُمْ إِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وهناك علم الرياضيات، ومرجعيته علماء الحساب، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَيْسَ بِهَذَا بِشَيْءٍ فَعَلِيَ الْعَالَمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، وهؤلاء

يستقون معرفتهم من حركة الجرام السماوية وما يتولد عنها من ليل ونهار، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ١٢].

وهناك أرشيف الأخبار والسير قبل البعثة المحمدية، ويمكن الاحتكام فيه إلى الصادقين من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَكَلِّمَهُ الْعَمَلُونَ بِحَقِّ إِسْرَائِيلَ ۝﴾ [الشعراء: ١٩٧]، فهؤلاء «يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ»<sup>(١)</sup>.

وقد امتدح الله تعالى الصادقين من علماء أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝﴾ [آل عمران: ١١٣]، وكبار علمائهم يؤمنون بالقرآن مثل ما يؤمنون بكتبهم أيضاً، قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾ [النساء: ١٦٢]، وهؤلاء وعدهم الله بالثوبة والأجر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعُوا إِذْ لَبِثُوا لَمْ يَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٩].

ويمكن الرجوع إلى أهل الكتاب لمعرفة نتائج تجاربهم الدينية، وما ترتب عليها من ثواب وعقاب، قال تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [البقرة: ٢١١]، وينبغي من خلال الاحتكاك بأهل الكتاب دعوتهم بالحسنى إلى

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (٦٥٩/٢).





الإرث المشترك بيننا وبينهم من التوحيد الخالص والانقياد لمنهج الله سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].



## ٩ - الاحتكام إلى القيم الفاضلة

القيم الفاضلة من فطرة البشر جميعاً، ونعني بالقيم الفاضلة: الصدق والأمانة والعفة والشجاعة والعدل ونحو ذلك من مكارم الأخلاق، وهذه القيم متفق عليها بين الأمم والشعوب جميعاً، لذلك يمكن الاحتكام إليها عند الضرورة من أجل استقامة الحياة الإنسانية.

فالنبي لوط عليه السلام دعا قومه إلى العفة ونبذ الشذوذ الجنسي، لأنه عمل ينافي فطرة البشر، ولم يفعله أحد من السابقين، قال تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقد حاول عليه السلام أن يثير في قومه البصيرة والتفكير في سفاهة فعلهم الشنيع، قال تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل: ٥٤].

والذين يحبون نشر الفاحشة، متفكّهين بأعراض الناس من هذه الأمة لا بد من تحذيرهم من مغبة فعلهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

وهذا شعيب عليه السلام يدعو قومه للأمانة في المعاملات الاقتصادية والتجارية، لأن الأمانة أساس النجاح في حياة البشر، وفقدانها يسبب الفساد الذي تنعكس آثاره سلباً على جميع المجتمعات، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ

مَدِينَتِ أَحَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقْوِمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥].

ودفع الظلم عن حياة الفرد والجماعة ضرورة إنسانية، والذين يمارسون الظلم بحق الآخرين لا بد من تهديدهم وردعهم حتى تستقيم حياة البشر، قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨٢﴾﴾ [الشورى: ٤١، ٤٢].

والعدل ينبغي أن يكون سمة المؤمنين حتى مع أعدائهم الذين يبغيضونهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

والمساواة بين البشر، تكون بشعورهم بالانتماء لأسرة آدمية واحدة، ثم حصل التنوع لكي يحصل التعاون والتعارف، والأفضلية لمن كان عمله صالحاً، وسلوكه ملتزماً بالقوانين الإلهية الثابتة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

والصدق كان في الأول والآخر دعامة الحياة، ولا سيما في التبليغ عن الله، وألا ينسب إليه شيء لم يشرعه أو يأمر به، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيِّنَةٍ وَلَا سَلْبَةٍ وَلَا مِجْرَافٍ وَلَا وَصِيَّةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذِبُهُمْ لَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [المائدة: ١٠٣].

والقرآن كتاب يفيض بمكارم الأخلاق، ولم يأت بشيء من أحكامه إلا وللأخلاق السامية فيه نصيب. وعليه؛ فإن الاحتكام للقيم الأخلاقية هو



انتصار للقرآن الكريم الذي يعلن نبيه ﷺ بوضوح أن رسالته دعم الخلاق، حيث قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»<sup>(١)</sup>.



## ١٠ - الاحتكام إلى المصلحة العامة

خلق الله الخلق لغاية واحدة وهي عبادته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقد سخر لهم كل شيء في هذا الكون من أجل هذه الغاية، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

لذا؛ فمصلحة العباد الدينية والدنيوية هي في اتباع أمر خالقهم، إذ لو فعلوا ذلك فسرعان ما يمدهم بالغيث الذي هو عنوان الحياة، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [يونس: ١٠]. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ [نوح: ١٠، ١١].

وهذا هود يعد قومه بالغيث وجميع أسباب القوة إذا أنابوا إلى ربهم، قال تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وتحكيم دين الله ﷻ سبب لازدهار الاقتصادي والحضاري بكل صوره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، والإعراض عن دين الله سبب ماحق للأمم والمدن والحضارات، وهو يؤدي للهلاك العاجل في الدنيا، والذي سيعقبه عذاب أشد منه في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا

(١) رواه البخاري في الأدب، وأحمد والبيهقي عن أبي هريرة، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، (٥٧٢/٢ - ٥٧٣).

لَفَنَحًا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَبُواْ فَأَخَذَتْهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦].

ولا يستطيع أحد غير الله - مما يعبد من دونه سبحانه - أن يرزق العباد أو ينفعهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثِنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُواْ عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُواْ لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

وعليه؛ فالطاعة مفتاح الرزق، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]، ولا حاجة لتحديد النسل أو التخلص من المواليد عبر الإجهاض أو القتل خشية الفقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيَ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

وعليه؛ فعلى المؤمن أن يبذل نفسه لله طائعاً مختاراً، طالما أن الله بيده الخير والرزق، وقد وعده بالمشوبة في الدارين: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُواْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَلَئِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الحج: ٥٨].

واستقراء الواقع المعايين والتاريخ المجرب يبين أن الازدهار قرين الإيمان، والخراب قرين الكفر، وهذه قاعدة ثابتة، وإذا شوهد غير هذا فإما هو استدراج للكافر، أو ابتلاء للمؤمن، أو عقاب دنيوي للمؤمن إذا تخلف عن إقامة دين الله تعالى أو تهاون في تطبيقه.

\*\*\*

## ١١ - الاحتكام إلى خوارق العادات (المعجزات)

المعجزة كما عرفها القرطبي هي: (واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان



بمثلها، وشرائطها خمسة فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة<sup>(١)</sup>.

والشروط التي ذكرها القرطبي هي:

الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه... كفلق

البحر وانشقاق القمر.

الشرط الثاني: هو أن تخرق العادة، وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو

قال المدعي للرسالة: آيتي مجيء الليل بعد النهار، وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيما ادعاه معجزة.

الشرط الثالث: هو أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله ﷻ،

فيقول: آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتاً، أو يحرك الأرض عند قولي لها: تزلزلي؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدّي به.

الشرط الرابع: هو أن تقع على وفق دعوى المتحدّي بها، المستشهد

بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعي

لِلرسالة: آية نبوتي ودليل حجتي أن تنطق يدي أو هذه الدابة، فنطقت يده

أو الدابة بأن قالت: كذب وليس هو بنبي، فإن هذا الكلام الذي خلقه الله

تعالى دال على كذب ذلك المدعي للرسالة.

الشرط الخامس: أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدّي على وجه

المعارضة<sup>(٢)</sup>.

وهذه المعجزات كانت إحدى وسائل إقامة الحجة على المكذبين

والمعاندين، وقد سجل القرآن عدداً من معجزات الأنبياء السابقين، من

ذلك: ناقة صالح عليه السلام، وأصلها صخرة في جبل، فحولها الله تعالى ناقة،

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا

الْأَنفَاقَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١/٦٩)، تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني، الطبعة الثانية،

مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، (١/٦٩ - ٧١).

ومن المعجزات عصا موسى عليه السلام، والتي انقلبت حية تسعى،  
والتقمت عصي السحرة، قال تعالى: ﴿وَأَوْجِبْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِي عَصَاكَ  
فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧].

ومن المعجزات ما فعله عيسى عليه السلام من الخوارق، كبث الروح في  
الجمادات وإحياء الموتى وشفاء المرضى بإذن الله تعالى، وكذلك إخباره عن  
بعض الغيوب، قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن  
رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ  
وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي  
بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ومن المعجزات الحسية التي أيد الله بها نبيه محمداً عليه السلام انشقاق القمر،  
قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، والدخان الذي  
عن سماء مكة نذيراً بالعذاب، قال تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ  
مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، والإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي  
أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ  
لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وحفظ الله لنبيه يوم  
الهِجْرَةِ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ  
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ونزول الملائكة يوم  
بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل  
عمران: ١٢٣]، وإرسال الريح على الأحزاب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا  
اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا  
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، وتعليم الله تعالى لنبيه  
عليه السلام بعض أمور الغيب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا  
فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ  
أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: ٣].

والمعجزات الحسية دليل صدق لمن رآها أو سمع بها، ولا سبيل  
لتفسيرها أو تعليلها سوى أنها تأييد من الله لرسله عليه السلام.



## ١٢ - الاحتكام إلى المعجزة القرآنية

قد ينازع الملاحدة في عصرنا بشأن المعجزات الحسية، وقد يرفضونها بحجة أنها أخبار تتناقض مع الواقع المألوف، وهنا اقتضت حكمة الله أن تكون هنالك معجزة حسية باقية تخاطب عقل الإنسان إلى يوم الدين، هذه المعجزة هي القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من أي جهة، والذي تحدى البشر أن يأتوا بمثله فعجزوا، وقد تكفل الله ببقائه إلى قيام الساعة، وعليه يقول القرطبي: (المعجزات على ضربين:

الأول: ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي ﷺ.

والثاني: ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، واستفاضت بثبوته ووجوده... وهذه صفة نقل القرآن<sup>(١)</sup>.

والقرآن كتاب فيه تفصيل كل شيء من أمر الدنيا والآخرة، وقد جاء به رجل أُمِّي، فلا يعقل أن يكون لأُمِّي كتاب كهذا لو لم يعلمه أحد، وطالما ثبت أن محمداً لم يدرس على أحد، ولم يكن في بلده مدرسة، ولم يبتعث في رحلة علمية خارج بلاده، فقد ثبت بالضرورة أن من علمه جبريل ﷺ، وأن محمداً رسول الله.

وعلم الإعجاز يرتكز أساساً على علوم البلاغة، فالقرآن جاء بأروع بيان عرفته العربية، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وهذا الكتاب فخر للعرب لو آمنوا به وتفاعلوا معه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ولو أن كتاباً فعل المعجزات الحسية التي ليست بمقدور بشر لكان هذا القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِيسْ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١/٧٢)، تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ [الرعد: ٣١].

وقد تحدى الله البشر أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن فعجزوا، وبيّن أن عجزهم سيبقى ملازماً لهم إلى قيام الساعة، فاجتمعت معجزة التحدي مع معجزة الإنباء بالغيب، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) ﴿إِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) [البقرة: ٢٣ ، ٢٤].

على أن في القرآن وجوهاً كثيرة من الإعجاز التشريعي والإخبار بالغيوب، والإعجاز العلمي، وغير ذلك، فهو كتاب لا تنقضي عجائبه، والإيمان به تثبيت لنبوة الأنبياء والمرسلين جميعاً، والكفر به هو كفر بهم جميعاً، إذ لا سبيل لإثبات معجزاتهم بالعين المجردة الآن، ولكن لما صدقنا بالقرآن صدقنا بكل ما فيه من أخبار، فمن جحد نبوة محمد فقد جحد نبوة نبيه أيضاً، لأن الإيمان بالقرآن والاحتكام إليه هما السبيل الوحيد لإثبات الحق في هذه الحياة ولجم المنافقين والملحدّين على مر العصور.

### ١٣ - استخدام التشبيه

التشبيه هو: (الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى)<sup>(١)</sup>، وهو كثير في القرآن كما هو الحال في اللغة أيضاً، وهو أحد وسائل القرآن لتوضيح الفكرة، وإقامة الحجة.

وتشبيهات القرآن جميعها سواء كانت مفردة أو مركبة، تمثيلية أو غير تمثيلية تدفع بالفكر في آفاق عليا، وتحرك الخيال في اتجاهات متعددة

(١) التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبدالرحمن البرقوقي، ص ٢٣٨، دار الفكر العربي.





وعوالم مختلفة، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارة: ٤]، وتأمل كيف ربط في هذا التشبيه بين حركة الناس وما يصحبها من تدافع وتصادم وهول واقتحام بحركة الفراش المتطاير المتدافع المقتحم، فقد تحدث عن المستقبل كما لو كان حاضراً، وربط بين الدنيا والآخرة في آية واحدة، ثم أعقبها بقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارة: ٥]، والعهن: هو الصوف، والمنفوش: الذي شرع في الذهاب والتمزق، فانظر إلى ثبات الجبال وقوتها كيف صار هباء، ففي آيتين اثنتين تبين ما تؤول إليه صورة العالم من التبدل والمغايرة يوم القيامة، وذلك من خلال التشبيه الذي يثري الخيال تدفقاً وحيوية وإثارة.

ولنتأمل من التشبيه المركب قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، وهي صورة دقيقة مفعمة بالحركة لأولئك الذين حملوا، وهنا استخدم صورة الماضي ثم أعقبها بصورة المضارع ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ﴾ استحضاراً للذهن وتشخيصاً للصورة أمام الناظرين، وماذا حمل هؤلاء؟ لقد حملوا التوراة التي هي نور الله، بيد أنهم رفضوا الحمل، وناؤوا به، فتلاعبوا كي يتخلصوا منه، فمثل هؤلاء كالحمار الذي يحمل أسفار لا ينتفع بها، ولا ينال منها إلا مؤونة الثقل، ووجه الشبه عقلي، وهو: حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه<sup>(١)</sup>، فانظر كيف نقلك التشبيه بين أمور متعددة أعطت الفكر صورة حية نابضة لحقيقة بني إسرائيل الذين لم يستفيدوا من مصاحبة كتاب ربهم شيئاً سوى العناء والمقت الإلهي.

(١) التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبدالرحمن البرقوقي، ص ٢٦٠.

لنتأمل أيضاً قوله تعالى في صفة شجرة الزقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصفات: ٦٥]، وهو من التشبيه الوهمي عند البلاغيين، كيف ربط القرآن من خلال التشبيه بين الطلع وبين رؤوس الشياطين وبين الزقوم بحيوية جمعت بين الدنيا والآخرة والغواية وسببها ونتيجتها، فرؤوس الشياطين هي التي ضللت الكافرين وساقتهم إلى هذا الغذاء الذميم، في عملية مدارها كله على القبح، فرأس الشيطان قبيح، والضلال قبيح، وعقابه قبيح، وشجرة الزقوم قبيحة، والأكل من هذه الشجرة قبيح.

ومن التشبيه نوع خاص يسمى بالأمثال القرآنية، وقد استخدمها القرآن لأغراض كبرى، فمن ذلك استخدامه لها في نفي الشريك عنه سبحانه، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٢٨]. والمعنى: «هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد - أن يشارككم بعضهم (فيما رزقناكم) من الأموال وغيرها، تكونون أنتم وهم فيه على السواء، من غير تفضلة بين حر وعبد: تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم، وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضاً من الأحرار، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟»<sup>(١)</sup>.

واستخدمت الأمثال في بيان سرعة زوال الحياة وتقلبها من حال إلى حال كما هي حال المياه النازلة من السماء التي سرعان ما تنمحق وتزول، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَنهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

(١) الكشف (٤٧٨/٣).



واستخدمت الأمثال في بيان إمكانية البعث، فمن يحيي الأرض الميتة يحيي من دفن فيها من البشر، قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْجَىٰ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

واستخدمت الأمثال في وصف حقيقة الكفار الذين يعطلون حواسهم ويردد بعضهم قول بعض، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

واستخدمت الأمثال في بيان عظمة القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

... وهكذا نجد أن التشبيه والأمثال من أدوات القرآن التعبيرية التي سخرها القرآن في بيان أغراضه.



## ١٤ - المذهب الكلامي

المراد بالمذهب الكلامي: (إيراد حجة المطلوب على طريقة أهل الكلام)<sup>(١)</sup>، ومثاله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فالشراكة تكون بسبب الضعف عن تحقيق الشيء من دون معونة الآخرين، والآلهة يجب أن تكون قوية بنفسها غنية عن غيرها، ثم إن الشراكة قد ينتج عنها صراعات وعداوات وخلافات بين المتشاركين، مما يفسدها من أساسها، ولو كان هنالك آلهة متعددة لهذا الكون لفسد الكون، ولما كان الكون صالحاً محكماً متوازناً، علمنا بالضرورة أنه صنع إله قوي واحد وهو الله العزيز الحكيم.

(١) التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبدالرحمن البرقوقي، مصدر سابق، ص ٣٧٤.

ومثاله أيضاً قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وكيف استدل من ظواهر الكون على الخالق المبدع: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٦]، فقد استشاره جمال الكوكب، فقال: هذا ربي! ولكن الرب ينبغي أن يكون حاضراً شاهداً قيوماً لا ينام ولا يغفل ولا يغيب، فعدل عنه إلى القمر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: ٧٧]، وحصل معه في القمر ما حصل في الكوكب، فاتجه على الشمس، ومنها إلى عبادة الحي القيوم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقَوِرُ إِنِّي رَبِّيُّ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٨].

والقرآن سنده العقل، وهو قائم على الحجج والبراهين، وهذا ما يقويه وينصره في كل زمان ومكان، وهذا الذي يعطيه القبول والخلود، فهو صالح لأهل قرطبة وغرناطة كصلاحه لأهل مكة والمدينة، وهو صالح لأهل القرن الخامس عشر الهجري كصلاحه لأهل القرن الأول، وهذا أحد أهم العوامل في حيوية القرآن وسر بقاءه معجزاً خالداً إلى يوم الدين.

\*\*\*

## ١٥ - تسخير طاقات اللغة

البناء اللغوي للقرآن هو قاعدة الإعجاز الأساسية فيه، فلقد كانت اللغة بين يدي القرآن الكريم مطوعة لأغراضه ومقاصده، يشكلها كما يريد، ويوظفها كما يشاء، يختار من مفرداتها أخفها وأيسرها وأعذبها، ويصنع منها نظماً غريب المنوال، ليس له في اللغة سابق مثال، وهذا النظم البديع قادر على أن يزلزل الجبال، وأن يهز الكون كله، والأهم من هذا كله أنه يهز الإنسان من داخله، ويخلقه خلقاً جديداً، وذلك لما فيه من الطاقة الفعالة.

ولقد تكلم أهل العلم عن أساليب القرآن وبديعه ونظمه، وما أكثر ما



قيل في هذا الصدد!، ولكن ما يعيننا هنا في هذه الأساليب: الطاقة، ونقصد بها استخدامه لأساليب تثير الحركة والانتباه في ذهن الإنسان، مثل: الاستفهام الذي يراد به التعجيز والتحدي، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَخْلُقُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْ تُوَفَّكَونَ﴾ [يونس: ٣٤].

والاستثناء الذي يقرر حقيقة المرسلين، كما في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

والنداء المقرون بالنهي الذي يراد به التيسيس، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْبُدُوا الْيَوْمَ إِلَّا مَا تَجُزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم: ٧].  
والأمر الذي فيه التهكم بالشركاء كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُودُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

وقد استخدم القرآن تعابير مختلفة، وكرر بعضها بصيغ مختلفة، وتناول موضوع المشترك والمترادف والمبهم ونحو ذلك، وذلك كله مما ذكره العلماء في بحوثهم عن القرآن، وهذه الأساليب استخدمها القرآن في حوار الكافرين والمعارضين خير استخدام، وكان لها دور كبير في هداية أعداد غفيرة من البشر.



## ١٦ - طلب الدليل والبرهان

طلب الدليل والبرهان إحدى وسائل الحوار مع الآخر وإقامة الحجة عليه في منهجية القرآن الكريم، والقرآن لا يفعل ذلك إلا لاطمئنانه بأن المشركين ليسوا على شيء، لذلك يقف على أرض صلبة في الحوار، فقد

وتحدى البشر أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣).

وتحدى أهل الكتاب أن يأتوا بدليل على أمانهم الكاذبة بأن الجنة لهم وحدهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١).

وتحدى بني إسرائيل أن يتمنوا الموت، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٩٤).

كما تحداهم أن يأتوا بالتوراة التي يفترون عليها، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣).

وكذبهم في مسألة ربط الإيمان برسول معه قربان، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٨٣).

وتحدى المشركين أن تستجيب لهم أصنامهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٤).

وتحدى المشركين أن يأتوا ببرهان على وجود إله غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَمَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٦٤)، وطالبهم بأي دليل على ما يذهبون إليه من الشرك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا



أَوْ أَتَدْرَوْا مَتَىٰ يَأْتِي السَّحَابُ رَوَّادًا ۖ يَكُونُ السَّحَابُ كَدِيمٍ ۚ ﴿٤٠﴾ [الأحقاف: ٤٠]، وزادهم تهكماً حين طالبهم أن يحضروا شركاءهم، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [القلم: ٤١].



## ١٧ - دحض شبهة الخصم

قد يكون لمن يقف معانداً للقرآن أو معارضاً لدعوته شبهات لا تقوم بها حجة، ولا تستند إلى حقيقة، فهي أوهى من بيت العنكبوت، بيد أنها تقف عائناً بينه وبين الإيمان، فهو بحاجة إلى من ينقذه من شراكها، ويستخلصه من عقدها، وهذا ما فعله القرآن الكريم بكل نجاح.

فهؤلاء الذين يجهدون أنفسهم بعبادة الأوثان التي لا طائل من ورائها إنما يصرفون جهدهم في شيء لا ينفعهم، وإلا فليجربوا دعاءها، هل تستجيب لهم؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. إن هذه الأوثان لا تعدو أن تكون حجارة معطلة الحواس، وهي مع أصحابها لا تستطيع أن توقع الضرر بالنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وهؤلاء الذين عبدوا عجلاً من ذهب، ألا يرون أنه كالحجارة الصماء لا يتكلم ولا يملك لهم أي شيء من خير أو شر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

وهؤلاء الذين يزعمون أن الجنة لهم وحدهم، لماذا لا يتمنون الموت حتى يذهبوا ويدخلوها؟ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

والذين يزعمون أنهم لا يؤمنون برسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، لماذا كذبوا الرسل وقتلوها لما جاءتهم بما زعموا، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَالْبَلَّغَتِ وَيَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

وهذا المشرك الطاغية الضال، الذي زعم الربوبية، وادعى إحياء الموتى، ما له لا يستطيع أن يأتي بالشمس من المغرب لو كان صادقاً فيما يدعيه من ربوبية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

إن دحض شبهات الخصوم خير وسيلة لهدايتهم، لأن هذه الشبهات ليست أكثر من عقد نفسية، نحتاج أن نحرر المريض منها لينطلق نشيطاً إلى ميدان الحياة.



## ١٨ - الاحتكام إلى القيم الجمالية

القيم الجمالية الماثثة في الكون والحياة والقرآن وجميع الأشياء من حولنا هي من أهم الوسائل في الدعوة إلى الله تعالى، وذلك أن حب الجمال فطرة في الإنسان، ومن شأن الجمال الحسي أن يجمع ذوي الأبصار، ومن شأن الجمال المعنوي أن يجمع ذوي البصائر ويقودهم إلى الصراط المستقيم.

وتفسر المعاجم الجمال بالحسن، وبالعكس<sup>(١)</sup>، ويستخدم القرآن في

(١) انظر: المعجم الوسيط، مادتي: (حمل، حسن).





الحديث عن هذه القيم لفظ أحسن على وزن أفعّل، والحسن هنا بمعنى الفضل، ويندرج الجمال في الفضل مع غيره من الكمالات، فالله أحسن الخالقين، قال تعالى: ﴿أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وهو الذي أبدع كل شيء، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. وقد أحسن كل شيء خلقه، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

وجعل الإنسان في أحسن صورة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وجعل لنا الجمال في ما رزقنا من وسائل النقل الحيوانية، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

وقد أنزل أحسن الحديث، قال تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مّتَابِرًا يَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقص أحسن القصص في كتابه، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وحكمه أحسن الأحكام، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ودينه أحسن الأديان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وتطهيره لعباده بالإيمان أحسن تطهير، قال تعالى: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

وخلق الناس ليلوهم أيهم أحسن عملاً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

ودعاهم إلى أن يقولوا التي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

ونبه نبيه إلى أن يكون الجدل مع الآخر بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد كان المسلمون الأوائل حريصين على القيم الجمالية، وبخاصة المعنوي منها، كالتفوق بالأدب من خطابة وشعر ونحو ذلك، وكان هذا التفوق سبباً لإسلام بعض القبائل، فحين قدم وفد تميم على المدينة قالوا: يا محمد جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا. فأذن لهم، وقام خطيبهم عطار بن حاجب فتكلم، فانتدب له النبي ﷺ ثابت بن الشماس، وتكلم شاعرهم الزبرقان بن بدر، فانتدب له النبي ﷺ حسان بن ثابت، فلما فرغ حسان، قال الأقرع بن حابس رئيس الوفد: (وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم<sup>(١)</sup>).

وحري بالمسلمين اليوم إتقان صناعتهم الإعلامية بما يضمن لهم التفوق واستجلاب المخاطبين نحو دينهم بالكلمة الطيبة والتعبير الجميل.

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، (٢٠٦/٤).



## ١٩ - الاحتكام إلى السيرة النبوية

إن دراسة سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها، ودراسة نسبه وبيئته وتاريخ بلده مكة، ودراسة أخلاقه وشمائله، تدل دلالة صادقة على أنه رسول من عند الله ﷻ.

فالرسول ﷺ من بيئة أمية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وهو نبي أمي، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ أَمَّنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولد يتيماً فتعهد الله تعالى برعايته، قال تعالى: ﴿الَّذِي يَدْعُكَ يَتِيمًا فَتَوَّى ﴿٦﴾﴾ [الضحى: ٦].

ولم يدرس أو يتعلم على أحد، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ولم يكن له ثمة معلم من العرب أو غيرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَاتِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

ولم يسافر إلا باتجاه الشام مرتين، الأولى: وهو صغير مع عمه أبي طالب، والثانية: في تجارة لخديجة في العقد الثالث من عمره.

ولم يكن يقرض الشعر، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩].

ولم يكن له وضع اجتماعي خاص، كأن يكون ساحراً أو مجنوناً، قال

تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَفَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [الذاريات: ٥٢].

ولم يكن كاهناً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢].

ولم يكن يتعامل مع الجن الذين يسترقون السمع، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥].

ولم يكن محمد ﷺ من قواد الحروب، فمن أين له بقيادة الحروب والانتصار فيها لولا أن الله كان مؤيده وناصره ومعينه؟

ولم يكن محمد من أسرة مالكة، ولم يصاحب ملوك الأرض أو يقرأ سيرهم، فمن أين له بسياسة الأمم والشعوب؟

ولم يكن قبل البعثة من ملوك البيان، فكيف يصبح بعدها أفصح العرب؟

ولم يكن من أطباء الزمان، فمن أين له بالطب النبوي؟

ولم يكن محمد ﷺ من علماء النفس، فكيف ربى الناس وهذب النفوس أحسن تربية وأسواها، لو لم يكن يوحى إليه؟

ولم يكن من علماء الحساب فمن أين له بقسمة الموارث؟

وكيف علم أن الحيض أذى، وخالف أهل الكتاب، وصحح لهم، وتحدى البشر بهذا القرآن، لو يكن ربه معه يؤيده ويحفظه؟

ومن أين له بهذا الكتاب وهذه المعجزات إن لم يكن رسولاً من عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَذْرَبْكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

إن الاحتكام إلى السيرة النبوية هو أحد وسائل القرآن في حوار مع الآخر، وهو منهج يقيم من الواقع المشاهد أدلة ملموسة على أن القرآن وحي من الله تعالى، وأن محمداً رسول الله.



## ٢٠ - الاحتكام إلى المنهج التجريبي

يقال: التجربة أكبر برهان، والمنهج التجريبي منهج احتكم إليه القرآن في إثبات الدعوة، فالدعوة إلى تحطيم الأصنام وعدم الخوف منها هو بداية المنهج التجريبي، قال تعالى: ﴿الْهَمُّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وفي القرآن حديث عن المنهج التجريبي عند الأنبياء والمرسلين، نوره اقتضاباً، فهذا الخليل إبراهيم يريد أن يعاين إحياء الموتى بنفسه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ونجد إبراهيم أيضاً يتحدى أحد الطغاة المتجبرين أن يحيي الموتى، أو أن يجرب محاولة الإتيان بالشمس من المغرب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وإبراهيم هو من حطم الأصنام فلم تضره، وطلب من قومه أن يجربوا سؤالها لتخبرهم، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُم كِبَرُهُمْ هَذَا فَسْتُلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطَفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

وهو من ألقى في النار فلم تحرقه، وإن من حصل له مثل هذا جدير بأن يكون للناس إماماً.

وهذا موسى كليم الله تعالى يطلب رؤية ربه، فيرشده الله إلى رؤية الجبل، فلما رأى الجبل يندك أمامه أدرك بالتجربة أنه لا يمكن ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي قَالَ لَنْ

تَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ سَوَوْفَ تَرْنِي فَلَمَّا بَحَلَّ رَبُّهُ  
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا  
أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وهذا سليمان عليه السلام يستعرض جنده ويتفقدهم، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ  
الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [النمل: ٢٥]،  
وحين غاب الهدهد أراد أن يتحقق من سبب غيابه قبل أن ينزل فيه العقاب،  
قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ [النمل: ٢٧].  
والله تعالى يرشد عباده الضالين أن يجربوا مخاطبة الأصنام، فهي لا تحس  
ولا تتحرك ولا تتكلم، ولا تصلح لشيء إلا أن تحرق، من ذلك عجل بني  
إسرائيل الذي عبده من دون الله تعالى، قال تعالى متهمكماً بإسفافهم  
وانحطاطهم العقلي: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا  
نَفْعًا﴾ ﴿٨٩﴾ [طه: ٨٩]، ولم يكن جزاء هكذا إله إلا النار، وأن ينسف رماده  
في البحر، ولذلك قال موسى للسامري: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ  
عَلَيْهِ عَازِفًا لُحْرِقْتُمْ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّ فِي أَلَمٍ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

والمنهج التجريبي مما علمه الله للبشر من عهد آدم، فحين قتل أحد  
الأخوين الآخر، لم يدر ماذا يفعل بالجثمان، حتى أرسل الله غرابين  
يقتتلان، فتعلم من الغراب القاتل كيف يدفن أخاه، فقلده وحاكاه، قال  
تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ  
يَتَوَلَّى أَعْرَجْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ  
النَّدَمِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [المائدة: ٣١].

وفي قصة ذي القرنين حديث طويل عن المنهج التجريبي وكيف أنه  
عابن بنفسه المشرق والمغرب، وأوتي من كل شيء سبباً، وقصته مفصلة في  
القرآن، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا  
﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ ﴿٨٤﴾ [الكهف: ٨٣، ٨٤].

والمنهج التجريبي يثبت أنه لا قوام لهذه الأمة إلا بالقرآن، بل لا



صلاح للأمم والشعوب إلا بهذا الدين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

كما يثبت المنهج التجريبي أن محمداً رسول الله، فما جربوا عليه كذباً قط، ولم يجدوه يتلاعب بآيات الله أبداً، ولقد ناقشوه وجادلوه، وراقبوه واستمعوا إليه، واتبعوا آثاره وتجسسوا عليه، فما وجدوه إلا كالشمس وضوحاً وإشراقاً، فشهدوا بصدقه وعدالته، ولكنهم جحدوا بدين الله ودعوته، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ولقد حاولوا قتله حين لم يجدوا عليه ريبة يتمسكون بها، فقد أعتيهم المناهج كلها في محاربتة، ولم تسعفهم كل الوسائل في إطفاء نور دعوته، لأنه كان على صراط مستقيم، فلا تغيير ولا تبديل، ولا بيع ولا مزاولات بشأن القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِفِرْعَوْنَ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسًا إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].



## ٢١ - الوعد والوعيد

الوعد والوعيد من وسائل الحوار مع الآخر، لأنهما متحققان بعون الله في الدنيا والآخرة، فقد وعد الله عباده المتصدقين بالزيادة، وهذا متحقق مشاهد ملموس عند من يتصدقون، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ووعد عباده المؤمنين ببدر بالخير أو النفير وتحقيق وعده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾  
[الأنفال: ٧].

ووعدهم بالنصر والتمكين لهم في الأرض إذا عبده ووجدوه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]. وهذه سنة ثابتة لا تتخلف أبداً، وما هزم المسلمون يوماً ما إلا لأنهم قصرُوا في أمر دينهم أو لأنهم تركوا الأسباب الموجبة للنصر التي يأمرهم بها دينهم، من وحدة واستعداد مادي ومعنوي لملاقاة عدوهم.

وهذه السنة ماضية في الرسل جميعاً قبل الرسول محمد ﷺ، فالغلبة للحق في جميع القصص القرآني، ولكن بعد أن يمحص الله أهل الحق فينجحوا في التمحيص، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤]. وقال أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

وأما وعد الشيطان لحزبه وحلفائه فهو وعد كذوب لا يتحقق أبداً، وإذا صدف أن تحقق فهو من ترك المؤمنين لسنة من سنن النصر، لا من صدق الشيطان في وعوده، فهو الكاذب على الدوام، ومن كذبه وعده للمشركين بالنصر يوم بدر حتى يغريهم بالخروج للمعركة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفَلَاتِنَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨].





ووعود المنافقين أيضاً هي من جملة المواعيد الكاذبة، قال تعالى: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَاقَتُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

والوعد والوعيد من سنن الأنبياء والرسل ﷺ السابقين في الدعوة إلى الله تعالى، فقد كان موسى ﷺ يعد من يؤمن بالفوز والثواب، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ووعيد الله ﷻ لا يتخلف عن أعدائه أبداً، وإن في أخبار الأمم البائدة لعبرة، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِلْآيَاتِ وَقَوْمٌ يَنْبَغُ كُلُّ كَذَبٍ أُرْسِلَ لِقَوْمٍ وَعِيدٌ﴾ [ق: ١٤].

وهذا القرآن ليس إلا تذكرة، ووعد للمؤمنين ووعد للكافرين، فعلى الرسول ﷺ أن يذكر به المؤمنين دوماً الذين يرجون ربهم ويخافون عذابه، قال تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

والخلاصة في هذا الموضوع: أن هنالك وعود دنيوية وأخرية ومثلها وعيد أيضاً، وأسلوب الوعد والوعيد مما استخدمه القرآن في تعامله مع الناس في دعوتهم إلى الله، واستقراء ما جاء من الآيات في هذا الصدد نجد أن القسم المتعلق بالدنيا منها قد تحقق، وأما ما يتعلق بالآخرة فهو سيتحقق بإذن الله تعالى، وهنالك إرهاصات على تحقيقه، ومن ثم فهذا الأسلوب هو وسيلة يمكن استخدامها في الحوار مع الآخر لإثبات صدق القرآن العظيم، ولدعوة هذا الآخر ليندرج مع أصحاب الوعد لا الوعيد.



## ٢٢ - الاحتكام إلى الله ﷻ

الله تعالى هو أحكم الحاكمين، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨) [التين: ٨]. وله الأمر كله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣) [هود: ١٢٣]. وله الحكم أيضاً، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

والإيمان بالله يقتضي تحكيم كتابه، قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩) [المائدة: ٤٩].

وهو يحكم بين عباده في الدنيا، قال تعالى: ﴿ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَنْتَكُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [المتحة: ١٠].

وهو سيحكم بين عباده يوم القيامة، ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٦٩) [الحج: ٦٩].

وقد كان المرسلون سباقين إلى شهادة الله ﷻ لهم بالرسالة، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٤٣) [الرعد: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦) [الإسراء: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٥٢) [العنكبوت: ٥٢]. وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١) [المنافقون: ١].

ولأن الله هو المرسل والحاكم والشهيد فهذا يقتضي من الرسول ﷺ طلب المعونة من الله تعالى، والخوف والحد من التغيير والتبديل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢) [الجن: ٢٢].



ويكفي أن أيد الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بهذا الكتاب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥١].

ولا يضير رسوله ﷺ أن يكذبه قومه، فتلك سنة تاريخية مر بها الرسل السابقون برغم ما معهم من كتب ومعجزات، قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ﴿١٨٤﴾ [آل عمران: ١٨٤].

ومن رحمة الله أن يعطي للمكذبين فسحة، ولا يعجل لهم العذاب، قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وما على الرسول ﷺ إلا الصبر والمضاء في التبليغ، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٤٨﴾ [الطور: ٤٨].

وعليه أن لا يخاف أحداً من المشركين، فالله يعصمه ويحميه، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ [المائدة: ٦٧].

وعليه أن يقول بقوة المؤمن بربه، الواثق بنفسه ورسالته: إن مظاهر الشرك وأهلها لا تستطيع أن تهزني مثقال ذرة، لأنها لا تملك ضراً ولا نفعاً، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وشهادة الله أقوى الشهادات وأعظمها وأهمها وأقومها، ولا يجترئ عاقل على ربه أبداً، ولذلك لما دعا الرسول ﷺ بعض النصاري إلى المباهلة امتنعوا خوفاً من عاقبة ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿١١﴾ [آل عمران: ٦١].

وأهل الحق - وفي مقدمتهم الرسل ﷺ لا يجروون على القول على الله بلا علم، فليس كذب على الله ككذب على أحد غيره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وأما ما يقع من أهل الضلال من جرأة على الله، وعدم معاجلة الله لهم بالعقوبة، فهو لهوانهم على الله، أو لاستدراجهم، أو لأن الله أعد لهم من عذاب الآخرة ما ينوون به، وليست خطيئة وزير عند ملك كخطيئة واحد من رعيته، فكلما ازداد القرب اشتدت المحاسبة، وهذا مشاهد معاين، والأمر بالنسبة إلى الله أعظم، ولله المثل الأعلى في الدنيا والآخرة.

وخلاصة الأمر: أن شهادة الله ﷻ لنبيه أقوى الشهادات، ويمكن الاعتماد عليها في حوار الآخر، ومن لم يقبل شهادة الله لنبيه ﷺ فلا يقبل الله له شهادة، وهو حسبنا ونعم الوكيل، قال تعالى: ﴿لَأَنْتَ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١٣].





## الخاتمة

وهذا البحث مقسم إلى مقدمة وتمهيد و(٢٢) فقرة، ومذيل بخاتمة.

في المقدمة؛ ذكرت سبب كتابة هذا البحث وأنه يأتي ضمن الرد على حملة شرسة اتهم الإسلام بعدم احترام الفكر والرأي لدى الناس.

وفي التمهيد؛ بيّنت أن الدعوة إلى الله هي مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، والدين الإسلامي الذي ندعو إليه هو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً وأن رسالة النبي محمد ﷺ أن يرد الناس إلى المنهج القويم الذي كان عليه الأنبياء جميعاً، وأن القرآن الكريم كتاب يحترم العقل والمنطق، ويدعو إلى التفكير والحوار مع مختلف البشر ممن لا يؤمنون به، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا الصدد، مما يدل على حيويته وملامسته لواقع الناس الديني والفكري، فهو كتاب يهتم بالحوار وإقامة الحجة والبرهان، كما يهتم بأداب الحوار والتعامل مع الآخرين برفق، وهو أمر يفتقده معظم المعارضين للقرآن الكريم.

وذكرت أن للدعوة أساليبها ووسائلها في إقناع الآخر، وإلزامه الحجة، وهذا البحث الذي قدمته يتكامل مع بحث محكم سابق نشرناه، وكنا قد استعرضنا فيه الأسس المنهجية للحوار مع الآخر، واليوم نستعرض في هذا البحث الوسائل المنهجية التي استخدمها القرآن في حوار الآخر، وهو بحث هام من أجل أن نتعلم من هذه الوسائل المساعدة في طرائق التفكير والتعبير والحوار حتى نقيم حجة الله على خلقه.

وقد ناقشنا هذه الوسائل مناقشة علمية هادئة من خلال ما يقوله الله ﷻ في كتابه مباشرة للكافرين والمعاندين، أو من خلال ما يعلمه لنبیه عليه

الصلاة والسلام من أساليب الحوار والحجاج، وكانت المناقشة ضمن (٢٢) فقرة وفق التالي:

- ١ - الاحتكام إلى العقل.
- ٢ - الاحتكام إلى النفس.
- ٣ - الاحتكام إلى الفطرة.
- ٤ - الاحتكام إلى البيئة.
- ٥ - الاحتكام إلى الكون ومظاهره.
- ٦ - الاحتكام إلى التاريخ.
- ٧ - الاحتكام إلى المستقبل.
- ٨ - الاحتكام إلى أهل العلم والخبرة.
- ٩ - الاحتكام إلى القيم الفاضلة.
- ١٠ - الاحتكام إلى المصلحة العامة.
- ١١ - الاحتكام إلى خوارق العادات (المعجزات).
- ١٢ - الاحتكام إلى المعجزة القرآنية.
- ١٣ - استخدام التشبيه.
- ١٤ - المذهب الكلامي.
- ١٥ - تسخير طاقات اللغة.
- ١٦ - طلب الدليل والبرهان.
- ١٧ - دحض شبهة الخصم.



١٨ - الاحتكام إلى القيم الجمالية.

١٩ - الاحتكام إلى السيرة النبوية.

٢٠ - الاحتكام إلى المنهج التجريبي.

٢١ - الوعد والوعيد.

٢٢ - الاحتكام إلى الله ﷻ.

وقد توصلنا في هذا البحث للآتي:

١ - استخدم القرآن جميع الوسائل المتاحة في الكون والحياة والإنسان ذاته من أجل إثبات قضاياها التي يطرحها.

٢ - استخدم سجل الحياة الإنسانية ماضيها ومستقبلها للغرض السابق أيضاً.

٣ - سخر طاقات اللغة التعبيرية والعلوم والمعارف جميعها أيضاً لهذا الغرض.

٤ - اعتمد على الفطرة السليمة ولم يأل جهداً في إيقاظها وتنبيهها.

٥ - استخدم أجود أساليب التعبير والحوار لإقامة حجته.

٦ - أشاد بالمعجزات على أنها دلائل إثبات صدق المرسلين، وأعظمها هذا القرآن العظيم.

٧ - احتكم إلى مصالح العباد التي تقتضي الإيمان من أجل سيروية الحياة وبقائها، وسرد من سير السابقين ما يؤيد هذا.

ونوصي في هذه الخاتمة بما يلي:

١ - تشجيع الدراسات الحوارية بين الإسلام ومخالفيه أو خصومه.

٢ - استخدام المزيد من الوسائل المتاحة لهذا الغرض كالصحف والأفلام والشبكة الإلكترونية.

٣ - نؤكد على أن الحوار هو في صالح الإسلام أولاً، وإن كثيراً من أعدائه سوف يكونون من خيرة أبنائه لو عرفوا الإسلام على حقيقته، وانزاحت عن أعينهم سحب الظلام.  
وصلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.







## المصادر والمراجع

- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبدالرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي.
- الجامع الصغير، للسيوطي، دار الفكر.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تصحيح أحمد عبدالعليم البردوني، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، مراجعة طه سعد، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، إستانبول، ١٩٨٤م.
- المعجم الوسيط، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر.
- مفردات في غريب القرآن، للراغب، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، دار الفكر.

